

بين شيخ وشاب وفتاة

للأستاذ نروت أباطه

أما الشاب فاديب قانع من الأدب بتذوقه وتلذذه . قرأ أكثر ما كتبه المتقدمون ، فلما كتب المحدثون عزف عن القراءة . ولم يجد ما يعر به هذا المزوف إلا أن يقول لم يمد في البلد أدب . أصبح هم الكاتب أن يكتب من الحب والمرأة ، كأن الدنيا قد خلت من كل شيء إلا الحب والمرأة . فلم يمد فيها مجال للفشل العليا ولا نصيب للموعظة الحسنة . . أين كتاب الأدب القديم وشماؤه ؟ أين روائع ابن العميد ، وبدائع عبد الحميد ، ورفائق ابن الزيات ؟ رحم الله الأدب !

وهكذا كان يمزى الشيخ نفسه من اجتوائها حديث الشباب ، حديث الحب والمرأة .

وأما الشاب فهو ابنه ، أرادته على أن يكون أدبياً فكان ، ولكنه كان على غير طراز أبيه . . كان الأب يؤثر الأدب القديم ويحب أن ينهل ابنه من موارده ، فأخذ يحفظه الأشعار المختارة لمبارقة الجاهلية والإسلام ؛ ولكن ابن القرن العشرين لم يكن ليحتمل أن يقرأ كل كلمة مرتين : مرة في الكتاب ومرة في المعجم . فكره الأدب القديم بمد أن تزود منه ما يكفيه أساساً ونبراساً . ولما رأى الأب أن ابنه لا بد تارك الأدب لو بقي مقصوراً على قديمه سمح له أن يقرأ ما يشاء ، فقرأ أكثر ما كتب في الأدب الحديث .

وأما الفتاة فهي زوجة الشاب ، وهي أيضاً أدبية بطريقتها ، لم توجه نفسها في قراءتها توجيهاً معيناً ، ولكنها مع ذلك ذات حس فني دقيق وذوق أدبي مرهف .

أسرة تربطها أواصر القرابة والنسب ، ثم توثق هذه الرابطة بينها رابطة الأدب . . أحببت هذه العائلة وأصبح من بواعث التبطة في نفسي أن أزورها كلما نهيت لي الفرصة . . وكان أن ذهبت ،

فوجدت (الرسالة) بين أيديهم ، وكانت بها الحلقة الثالثة من (قصة فتاة) . . وهي التي يصف فيها الأستاذ الزيات الفتاة حبيسة في العزبة ، تلج عليه أن يجاوبها حباً بحب ، لا حباً بنصيحة . وبصفها وقد ملت الانتظار . . فيأتي بقمصتها مع الجاموسة ، ثم يرواها مع ابن البستاني .

رأيت الشيخ يتوثب على كرسيه ، وقد رده الحلق شاباً ؛ ورأيت الفتاة محتاجة فكأنما هي صاحبة القصة ، وكأن «س» اسمها الحقيقي ؛ ورأيت الشاب يكتم فرحة تفيض على محياه ، فبدأ في وقاره وكأنه الشيخ . . . وعجبت أن يغضب الشيخ والفتاة لسبب واحد ؛ إذ العادة أنه إذا غضب الشيخ رضيت الفتاة ، وإن رضى غضبت . ولكن العجب ، وإن أتحد في جوهره وهو المقال ، تشعب في عرضه ، قال الشيخ :

— لو لم يكن الزيات هو صاحب الرسالة لوثقت أن هذا المقال مزور عليه . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! لقد كان أسلوبه وأدبه عزائى عما أصابني في الأدب الحديث . إنه وحده الذي كان يظهر جمال الأدب الجديد حين يكسوه بالأدب القديم ، أيكذب هو أيضاً عن الحب ؟ وأى حب ! وعن الشهوة ؟ وأى شهوة ! لا ، لا يصلح قلم الزيات لهذا الأمر . . ثم التفت إلى وقال : قل له يرجع إلى ما كان عليه فإنه أولى به وأحرى .

قالت الفتاة : لا بأس يا عماء أن يكتب في الحب ، ولكن أهكذا يكون حب الفتاة ؟ أم لا تحب إلا بهذه الصورة التي رسمها لها ؟ إن الكاتب حين يكتب عن جنس بذاته يختار من بينه شخصية تتفق عناصرها وأغلب أفراد هذا الجنس أفتاته «س» هي نموذج الفتاة المصرية ؟ أكل فتاة مصرية ترى في الخلطة تجريباً وتدريباً ومتممة ، وأن هذا التجريب يكون . . لم يدعها الشاب تم الحديث بل اندفع قائلاً :

— حبك . . حبك . . فوالله ما غضبت لجنسك المبروح أن بينهم ، ولكن غضبت لأنه يكشف الستار عن خبيثته ، ويبدد ذلك الوم الذي كان يرين على دحياته . تضعكن على الرجال فتدعين غموضه وإيثاره في الاستخفاء . . وظللنا نحن المساكين نقع في حباله كن وتزعم في شبا ككن ، محاولين الوصول إلى ما تخفيه نفوسكن حتى تتمكن بعد ذلك من إقامة الحياة في سفنها